

كتبه النافعة نشرها بعد الستين وكذلك الحال في هايدن الموسيقي الالماني وهاندل وفيكاتور هوغو كان بعد الخمسين غيره قبلها وكذلك باستور .

وبهذا رأيت ان رأي الاستاذ اوسلر لا يخلو من غرابة وان كان فيه بعض الحق . فالامر موقوف على نوع العمل الذي يعمل والصفات التي يبرزها العامل . ومن الثابت ان كثيرين يعجبون كثيراً في الانتطاع عن تنمية قوتهم العقلية ويدخلون في مضار فيعملون في الحال ما يلزم له دون ان يتمكنوا من زيادة شيء يذكر بعد ذلك فهو لا هم من الفئة التي بجمل لها فائدة . ولكن الرجال الذين يشارون على التعلم الى الخمسين او الستين ويظنون يعشون ويوجدون الحقائق او يحزنون الافكار والقضايا وينسقون وضعها — الرجال الذين لا يتفكرون عن تنمية عقولهم على الدهر بما يعاونه من الاعمال التي تستدعي اهتمام الذهن وانصراف القلب هؤلاء يدوم امد الانتفاع بهم ولو بلغوا ارذل العمر . وكثيراً ما يتأخرون في الابداع والايحاء الى الاربعين والخمسين ويظنون يدعون الى خاتمة اعمارهم اي السبعين والثمانين . وما رأيت من اعمال اسمرك وغلادستون ومولسكه في تغيير حال السياسة في ايامهم اكبر دليل على ان المعمرين ليسوا بنتائج عقولهم دون من لم يعمروا مثاهم في النشاط والفضل وان الشيوخ لا يلزمون يومهم بدون استثناء ويجلسون الى مواقد النار للدف وقضاء الوقت في التسلية .

نفاضة الجراب

وبل للطفقين (١)

قامت مدينة آيري التجارية الصغيرة في جزيرة ايسلاندا في مكان بهيج على لسان من اليابسة بدخل في البحر ويثقل الاعين ضيقاً لما يكتنفه من التلعات والتخدرات العالية . ولم يكن في هذه المدينة قديماً غير محل تجاري واحد وجواز تجاري صادر عن ملك الدانيرك وهذا المحل يعرف من النظر اليه لاول وهلة . والمعروف في تلك البلاد انه ملك رجل اسمه كريتيور انشأ هذا البيت التجاري في دار قديمة العهد على ما تشهد بذلك اعلامها وراياتها وكانت

(١) قصة نقلتها المجلة الباريزية الى الفرنسية من اللغة الدانيمركية لمؤلفها جستور بالسون وهو من مشاهير ادباء ايسلاندا له قصص صغيرة لتأثر بها النفس لما فيها من وصف الاخلاق والآداب ولتواندها الاجتماعية العديدة وله هجوم بفعل في النفس فعل السيف ليس فيه تفرغ وشبهة بل هو مجموع حوادث شوهدت وعاشت تدخل اعماق القلوب وتؤثر فيها الاثر المطلوب .

تتاز بقلّة ارتفاع حوائطها المتناسبة مع علو السقوف وكان في الشبايك السفلى الواح صغيرة من الزجاج وفي الطبقة العليا غرف صغيرة وزوايا صغيرة كأن الغلظة من مميزاتها .
 أما الآن فإن كرييور التاجر كان قد شاخ وابتضت لحيته كلها وكان ابن زهاء سبعين سنة ولكنه لم يكن في الحقيقة يعرف عمره على وجه الصحة إذ قد مضى عليه زمن طويل وهو لا يحسب أيامه وأعوامه لأنه قضى حياته في حساب أمور أخرى أهم في نظره من غيرها .
 مضى عليه نحو نصف قرن عند ما فتح مخازنه في آييري ولم يصرف ساعة من هذا الزمن إلا في ادخار المال بكل الوسائل وكان ذلك من السهل عليه إذ لم يكن ثمة أحد يباريه في تجارته بل لم يخطر على بال أحد أن يناهضه . وتعاقب جيلان من الناس بدون أن يحاول فرد فذ أن يقيم في تلك البلدة لينازعه في زبنة (زبائه) .

فكان وحده مستأثراً بمجاوله الأرباح عرف من ابن توث كل الكشف فلم يراع في جميع أعماله إلا مصلحة نفسه فكان الحاكم المتحكم في مدينته يقن قوانينها ويتصرف بمجاولها ومروها . فكل شيء يباع في محله بضعفي قيمته أو بثلاثة أضعافه والبضائع التي يبيعها من الناس تساوي ثلاثة أضعاف أقل مما تساوي في أي محل من المحال التجارية في أيسلاندا وكان مع هذا لا تأنف نفسه من غش زبنة في كمية البضائع وكيفيتها ويتقاضى عند الحساب ثمن بضائع لم يبعها ولا استلمها المبتاع . ولذلك لم يكن مما يدعو إلى العجب أن تقل البركة من آييري وضواحيها ولا يجد أهلها فلاحاً . كل ذلك وكرييور لا يهتم لما يجني على الناس ويكفيه على الدوام أن يزيد أعماله وأرباحه .
 وبديهي أن كرييور لم يكن محبوباً في بلدة آييري إذ كان زبنة يعرفون كيف يعاملهم قبل أن يدخلوا مخازنه التي كانت قطعة من جهنم . ولقد شكوا الناس كلهم من حاله إلا أن الفقراء كانوا أحق بالثناء من غيرهم من السكان . وزد على ذلك فإن كرييور تولى منذ زمن طويل زمام جمعية « الإحسان العام » وأصبح يجز صوف الفقراء ويختلس الأموال المجموعة لأغاليهم والادّار عليهم حتى لقد شاع على اللسان أن ليس في آييري بائس بلجاً إليه إلا ويرجع من لديه أفقر مما أتاه وكان من مبدل كرييور أن الفقر مفسدة أبدية وأن انخوائهم كلهم من الكسالى والمُسرفين وكل من يطلب معونته يعامله أسوأ معاملة فلا يعود إليه بعدها مهما يرحت به تباريح الفقر المدقع . ومن أخباره أن بعض البائسين مدوا أيديهم إليه يستجدون نواله فضرهم عليها ضربة كسرها وبقي اثر الكسر بادياً عليها . بيد أن المضروبين ما قط شكوا أمرهم لأحد . وذلك لما وقّر في نفوسهم من أن دعواهم عليه لا تسمع لأنه غني وتجارته ناجحة . فالفقضاء أن لم يكن له فلا يكون عليه من أجل مظهره .
 وما لا شك فيه أن كرييور كان آية في نشاطه لا ينازعه في ذلك منازع يعمل حتى

بكاد يتصيب عرفاً كما يعمل الوحش الفاري وقد قبض بكلتا يديه على فريسته . فيما كركور الزاجر الى مخزنه قبل جميع مستخدميه ويخرج منه بعدهم كلهم ويتعب تعباً لا مزيد عليه بحيث لو جمع تعبهم وقبس شعب بضعة افراد من مستخدميه لرجع تعبهم لا محالة . فكان يضع ييده المعاجين ويكيل ييده الخمر ويرز القهوة ويغاطب الفلاحين ويسك دفاتره يده ليقيد فيها ولم يكن في حاجة الى التقييد والحساب لانه يأخذ ما يشاء وهو لم يتعلم ولا يحسن الكتابة الا قليلاً . ولا يمتعه ذلك من ان يضع يده الصوف والشحم في ميزان ويدفعه يده قليلاً ليرجع . ومن العادة ان يطالب المبتاع ان يحسن الكيل والوزن ولكنه اذا طالب بذلك يضحك منه كرميور ويحييه باسماً رافعاً كتفيه او مردداً بعض الالفاظ . فاذا ذهب الزبون يلتفت كرميور الى مستخدميه ويوعز اليهم ان يستعملوا الكيل والميزان كما يستعملها هو ويريدهم على ان يطقوا ويتلاعبوا ويقول لهم ان مهارتهم في ذلك متوقفة على حسن التخلص بلباقة . ومع هذا فقد كان قاسياً من وراء الغاية في معاملة مستخدميه وقلما يقعد احد منهم عنده زمناً مع انه من الصعب ايجاد تجار آخرين يخدمونهم اذا خرجوا من محلهم وكان يتاديه بغير الفظاظ والالفاظ النجسة الوحشية ويطعمهم اردأ طعام ولا يمنع سيئ الاحايين من صنعهم ليثبت لهم بان يده خفية في القرب خفتها في النشل والنهب .

وما كان كرميور يعنى بطعامه ولكنه قد يثائق بعض الايام ويتناول قطعة من اللحم المحمر وقدحاً من الشراب وفي ذلك اليوم يدعو بعض اغنياء الفلاحين من اهل تلك الناحية لتناول الطعام معه ولكن هذه المآدب الحارقة للعادة تنتهي في الغالب على اسوأ حال وذلك ان الفلاح يذكر له في خلال الحديث الغلط الذي وقع في ورقة الحساب الذي كان بعث به اليه التاجر فيحييه كرميور بحدة وتنتهي حالهما من الكلام الى الشتم ومن الشتم الى الملاكمة ويتهال الضرب على المدعو ويطرد من بيت التاجر طرداً .

ومن المالحق انه لم يلتزم احد معه قط وقد تزوج اربع مرات وماتت ازواجه الاربع سأمًا من الحياة معه . وكان كرميور يتعزى عن فقدته في الحال اذ لم تأت السنة على فقد الواحدة حتى يكون عروساً في آخرها . دام ذلك الى ان تحمل للمرة الرابعة . وقد رزق ولدين من زوجه الاولى مانا كلاهما واسم البكر آرفي كان ساقطاً حقيراً شرباً خميراً أبكره كل عمل حتى انتهت الحال بوالده ان طرده من بيته فاخذ بقرع البيوت واستجدي الا كف في آييري وهو يسكر حيثما نزل وكيفما اتجه . ثم سدت في وجهه جميع الابواب فرجع الى دار ابيه طامعاً سكرًا فطرده ابوه ولما لم يقدر ان يقف على رجليه زحزح الى الباب (قير) وكان غير مقفل كما ينبغي فتدبعت منه الغد ميتاً وهو ملقى على كومة من الصوف اما ابنه الثاني المدعو بوحنا فكان على العكس من

أخيه حسن السلوك ذكياً للغاية عاملاً لا يكل، ولكنه غرق بينا كان يسبح في البحر في العشرين من عمره في آخر سنة له في المدرسة فكان فقده على كريتور أول يوم حزن فيه مدة حياته . فقد تلقى مصابه بفقد زوجته الأربع غير مكترث لما أصابه ولكنه لما كان يذكر أمامه ابنه يوحنا كان وجهه يتغير على أن حزنه عليه لم تبد في وجهه أماراته بكثرة واكتفى بأن يقول أن دفن الميت يكلف كثيراً وأن جميع الشعائر التي تقام في الجنائز لا تفيد الميت شيئاً ومن رأيه أن يجعل الميت في تابوته وأن يحمله أهله إلى المقبرة بدون توسط أحد من رجال الدين لما في ذلك من الاقتصاد في النفقة والتخفيف عن الميت وآله .

وكان اسم زوجته الأخيرة كودرون وهي انشط نسوانه الأربع ولما بنى بها كريتور شعر بالشجوخة وضعف الذكورة وتقهقر الاشغال . ولكنها عند ما استلمت إدارة بيته وضعت كل شيء موضعه وسار كل شيء على نظامه واخذت تجارتها حياتها السالفة وذلك لأنها كانت منبهة للغاية فدخل مرات كل يوم إلى المخازن على غفلة للتفاجي المستخدمين ونظر في الدفاتر وتحقق الحسابات وتكلم الزين إذ كان لسانها فصيحاً كما كانت يدها رشيقة وحركتها خفيفة . على أن الشيخ كريتور لم يرض عن زوجه لأنها كانت تترأى له بأنها تكلفه من النفقة أكثر من تقدمها من زوجته . ويعتقد أنها مسرفة لأنها تريد أن يكون لزوجها ما يجب أن يكون له وأن يقبض كل واحد أجرته وهو مما يسميه جنوناً وقلة تدبير . وعند ما كانت تطلب منه دراهم كان يردد أبدأً عليها نعمة واحدة وهي : أن القليل الذي استطعت أن افنصده سيوفر في الحال عند ما اقضي نجي . . . بيد أن ما أنبأ به لم يتحقق قط فماتت كودرون بعد اثني عشرة سنة من زواجها بكريتور وعاش هذا بعدها طويلاً . ولم تخلف كودرون ولداً فاختصرت ذرية كريتور في طفل اسمه ماركوس وهو ابن ابنه يوحنا المتوفي وكان ولداً متمتعاً ولكن صورته مزرية وقليل النشاط والحركة فلبثناه جده بعد أن فكر زمناً أن يتركه ناله على المدينة ولم يرض بقبوله في بيته الا تخلصاً من أن يكون فريداً وحده ولا عقب له .

٢

ماتت كودرون فكان موتها فاتحة سوء الطالع على كريتور فاتخذ له خادمة بعد أخرى وكلما غير خادمة تزداد حال بيته اختلالاً فحين لا يعرفن إلا الاتفاق ولم تجرأ واحدة منهن أن تعمل له عملاً نافعاً لأن الشيخ كان كثير الظنون والساقيات والسارقون يعشون بأمواله في كل مكان . على أن حذرته لم يحل دون دخول فساد على أعماله فاخذ المستخدمون لا يخافون بأسه وكل منهم يسرق من المخازن ما يروق ناسياً بالقصد أن يقيده فدخلت تجارتهم سبب دور الاضطهاد وأصبح كريتور إذا غضب وأراد أن يعاقب المتلاعب من كتبتة وخدامه

يسكون بذراعيه ويديه ولا يفلتونها الا اذا رضي بان يعود الى السكون ولا يعمد الى العريضة
 وحدث في غصون ذلك حادث كان فيه القضاء المبرم على هذا التاجر ومعه وذلك ان تاجر بن
 غريبين جاء ذات يوم الى آبري وانشأ محلاً تجارياً فاختزن كرمور يخلون عنه واحد أبعد
 واحد تخفض اسعار بيعاته الى اخص مما يبيع ذاك التاجران وزاد في رواتب مستخدميه الا ان
 ما اتاه لم يأنه بفائدة وارفعت ثقة الناس من محله منذ زمن واصبح في الحور بعد الكور وفي الحسran
 بعد الرجح حتى لم يعد يرض احد الفلاحين ان يعامله بخافه ان يعود ثانية فينشب فيه مغالبه ولكن
 كرمور بذل جهده في مقاومة سوء البخت فكان يدفع كل سنة من ماله عجزاً كبيراً
 وكان من هذا الجهاد ان قل ماله بالندرج وكل ما يصرفه من ثروته على هذه الصورة
 كان في الحقيقة لحمه ودمه فاستولى الضعف على قواه الطبيعية وحل الوهن محل القوة التي كانت
 عضده في شوؤنه خلال خمسين سنة واقام عنه وكيلين لادارة اعماله ولم يكن منهما الا ان
 زادا الطين بلة واحذا بسوء سلوكهما يبعدان الفلاحين عن معاملة المحل كما كانوا من
 قبل وكانا يصرفان معظم النهار في ملاطفة صاحب المحل ليحلا من قلبه مكاناً يتذرعان به
 الى نيل ما ربهما منه ومن ماله فيجتالان على مدح جميع اعماله ليجرزا ثقته ولم يكن الى ذلك
 العهد قد وضعها في انسان وما اقتربا منه الا ودعواه يبا «صديقي العزيز» ويقال انهما
 كانا يسرقان من الصندوق اكثر مما كانا يضعان فيه من الدراهم .

وبعد ذلك وفق كرمور الى الظفر بخادمة على هواه لتولى امور بيته اسمها مريم جاوزت
 الخمسين من سنها وقرنت في خدمة البيوت ومعاونة الرجال وكان ما يرضيه من طباعها في
 الاكثر هو انها تثقت كل المقت ما كان يسميه بالنظافة والنظام اللذين لا فائدة منهما
 فلا تسمع ارض الدار الا في الاعياد الكبرى ولا تكنس الغرف الا صباح الاحد ولا تعني
 بزيئها الا اذا بقي لها وقت فكانت «فرشات» الثياب يطول عمرها معها لانها قلما تستعملها
 في نفث الثياب . تخف ابداً الى الاقتراب من ذاك الشيخ وتطيعه لاول كلمة يفوه بها ونقص
 عليه ما يجري في الدار والمخزن والمدينة وما يقال فيها وما لم يقل ونسب سوء القصد لكل
 من كان لكرمور بعض الثقة فيهم وتزيف اقوالهم وتوردها في قالب لا يفهم منه الا عكس
 ما يراد منها ثم تعرض عليه بان الناس كلهم يسرقونه اذا لم يعهد اليها بان تراقبهم .

فوقع كلامها من قلب الشيخ موقع التصديق حتى زادت ثقته بالناس ضعفاً واقتنع بانه
 محفوظ بقشة لا غاية لها الا ان تنهب ماله حاشا مريم فانها الوحيدة التي ما عراه شك سيف
 امانتها ولم تكن مريم تسرق مالا بل توفر من اجميع النفقات ولا سباً من الطعام وخصوصاً
 طعام المستخدمين فيدخلوها بيت التاجر دخله الجوع . ومن المميزات التي اختصت بها مريم

انها كانت تحسن الانفعال بكل شيء وما قط طرحت بقية من بقايا العم ولذلك كنت تستنشق في غرفة كرييور التي يقف فيها عندما يترك موازنة المستخدمين روائح كريهة تنبعث من تلك العووم المدخنة عرفت مراراً كيف تحسن معاملة زوجها وتستولي على عقله كما تحسن معاملة الناس وتخدعهم وكان صوتها رقيقاً تلطف مع الزين وتلاطف الاولاد وتوهم كل من يكلمها لتوسط له امام كرييور انها مساعده فيما يريد وانها مبرأة من كل غاية الا من النفع العام على انه لم يحدث من اثر هذه الغيرة كلها ما يعود على محل الناجر بالفلاح واخذ الانحطاط يزداد في اشغاله يوماً فيوماً على ما نبذه هذه الخادمة من وسائل نجاحه .

وكان لكرييور في غرفة مجاورة للغرفة التي ينام فيها خزانة من شجر الكاكي جعلها صندوقاً لوضع ماله ولما كانت اعماله سائرة على قدم النجاح قديماً كنت ترى جرار الخزانة طائفة بالنقود الذهبية والفضية وفي وسطها اكيراس ملاهى فاخذت هذه الاكيراس تنقص شيئاً فشيئاً منذ انحطت تجارتها حتى لم يبق واحد منها بل قل " ما كان في الجرار من النقود وفرغ كثير منها بته .

٣

حدث ذات يوم من ايام الحريف بعد ان عادت القطعان من المراعي ان مناصبي كرييور في تجارتها باعوا من فلاحي آييري كثيراً من البضائع انهم بارباح وافرة ولما نفي الخبر اليه انزعج ازعاجاً شديداً واصابته سكتة دماغية فوقع في حفرة لاهلك به فنقل الى غرفته واجتمعوا في سريره واستدعوا الطبيب . وكان هذا شاباً لم تقص بعد سنوات قليلة على نيله الشهادة سكن في تلك البلدة حديثاً . تخف الفحص المريض فرآه نائماً عن رشده فقصى الليل كله بالقرب من سريره وهو يمرضه ولما طلع النهار رجع الى الشيخ كرييور صوابه ودام دور نقاضته طويلاً وانشأ كرييور يسير على رجله قليلاً حتى استطاع ان يطوف محله زاحفاً وكان الطبيب "يعني" بصحته كثيراً . وكان هذا الطبيب قد حاز ثقة الجمهور لا لحذقه بل لانه اشتهر بالصبر .

وما كان للشيخ كرييور اعتقاد كبير في الطب لان صحته القوية قد اعنته . الالتجاء اليه على ان الدكتور "نوردور" قد استولى في الحال على عقله وكلما كان يزوره يتهلل وجه الشيخ كرييور بشراً وطلاقة . فكان النافه ينظره وهو جالس على كرسبه الكبير طول النهار ساكناً لا يتكلم كالحجر الاصم وكانت الضربة قد اصابته في جانب فمه فالفجته فلم يعد يتكلم الا ببطء شديد ولا يلفظ في الاحايين الا بعض مقاطع من الحروف كثيراً ما تكون مبهمه لا تفهم .

اشار كريثور ذات يوم بعد ان انصرف الطبيب من غرفته الى خادمته مريم ان تقرب منه وسألها ان تقرأ له شيئاً فأخذت من صندوقها التوراة وكانت الكتاب الوحيد الذي احتفظت به طول حياتها فتفتحت باب رؤيا القديس يوحنا الانجيلي وقرأت الآيات التي ورد فيها ذكر تعذيب من يعذبون في النار والكبريت ولاننا لم الراحة ليلاً ولا نهاراً فقاطعها كريثور والغضب أخذ منه قائلاً : ما اتخس هذا النبي يوحنا يشكم عن هذه النار وهذا الكبريت اللذين ليس لهما اساس . وحدث بها بعينيه اللتين كانتا تبرقان بشعر الغضب فذعرت منه حتى ارتجفت كلها وعادت فأخذت يدها الجيوب الذي كانت تحمكه قبل ان تشرع في القراءة له . اما كريثور فلم يرفع نظره منها وظل ساكناً لا يتكلم واخذ وجهه يتفحص اشبع تغضن من هنية الى اخرى ويحرك ذراعيه كأنه يريد ان يطرد احداً يهدده بالقبض عليه . وكانت غرفة الخادمة متصلة بغرفة سيدتها فذهبت اليها عند ما رآته قد نام الا ان النوم لم يحشه في تلك الليلة ولم يتمكن من اغماض جفنيه وترك نظره يسرح وهو في قلبي يبدو عليه في غرفته واخذ من وقت الى آخر ينهد ويلفظ كلمات منقطعة . وكانت بالقرب من سرير كريثور منضدة صغيرة بضيء عليها مصباح في الليل منذ وقع مريضاً ومن عادة مريم ان تنزل القليل للاقتصاد من الزيت وهكذا سمعت ظلال مشوشة على الحائط . وفي تلك الليلة اراد كريثور مخالفة عادته في ترك القليل صغيراً بحيث لا ينطفيء فقط واراد ان يكبره ليكون ضوءه كثيراً لان الظلام كان يحببه .

فلطفت مريم ان الشيخ راقد واخذت تسير نحو غرفته سيراً لطيفاً فلما سمع وقع قدمها صاح والدعرا أخذ منه : مريم مريم . فاجابته فقال لها انظنين بان الموت سيأخذني ؟ فقالت له : ان الموت بعيد عنك لان صحتك تحسنت كثيراً عن ذي قبل وعما قريب ستشفى كل الشفاء باجابهها بقوله : نعم صحتي احسن وقرياً أشفي ولا اموت .

ثم سكت وخفت مريم بالانصراف من غرفته فناداها قائلاً : اتعقدين يا مريم انني سأذهب الى النار متى حل بي رب المثلون ؟ فاجابته : انت تروح الى النار سامحك الله على مثل هذا الفكر اما انا فلا اعتقد بأنه يخشى عليك من النار . ولما سمع ذلك اجابها : نعم لن اذهب الى النار . ثم غاص في بحر السكوت من جديد وعاد فقال لخادمته : هل عملت شيئاً واركتبت كبيرة اعاقب عليها ؟ فقالت له كلا انك كتبت سليم الصدر ابداً وما فقط اسأت الى انسان وعلى العكس فان كثيرين قد اساءوا اليك فنبهوا منك . مالك وخذعوك بكل حيلة من احاييلهم . فاجابهها بقوله : نعم ان الناس اساءوا الي . اساءوا الي هؤلاء الملاعين . ثم استولى السكوت عليه وقال بعد لحظة : انظنين ان من خدعوني يروحون الى جهنم .

فقلت له : اذا نجا احدهم من النار فيكون في نجاته وجه الغرابية . فاجابها : ان المسألة طامرة وسينلقم المولى لي منهم اذ يرى انني عاجز عن الانتقام بنفسي لنفسي والا لما كان ثمت عدل . فنهضت مريم وربت وصادقي كرييور ووضعتهما وضعاً حسناً تحت ابطيه ليتكن من الجلوس وتسريح النظر في الغرفة وبعد ذلك انصرفت لثنام واطبق كرييور جفنيه ولم يعد يتحرك حتى فنتته قد رقد . الا انه لم يلبث هنيهة ان فتح جفنيه واخذ منه الهلع وهو يحرق في زاوية الشباك ويصرخ « هناك في تلك الزاوية ضوء انجدوني ! » فقفزت مريم الى الارض واسرعت فاوقدت المصباح فبدد النور غيايب الظلمة وصارت الغرفة كأنها في رابعة النهار . وكان العرق بكل وجه كرييور ويحاول ان يمسحه وهو يفيض عليه وعيناه تشخصان الى كل ناحية من انحاء الغرفة ذات اليمين وذات الشمال وفي اعلاها واسفلها وشعره الابيض كالثلج مسترسل على جبهته وعيناه تنظران وتحدقان والهلع آخذ من قلبه مأخذه . فاخذ يسأل مريم قائلاً : يا مريم اتعتقدين بان هناك جهنم ؟ فاجابته ان سؤالك عن النار اشبه بمن يسأل عن وجود الله تعالى . فقال لها : اذا فانت ابنتا المخبونة المقدسة تروحين اليها والناس كذلك ولا سبيل الى النجاة منها . فلم يسع مريم الا ان قالت له : لا تفكر في هذا ليس ثمت مسنى لهذا الاسم (جهنم) . فاجابها نعم ليس ثمت جهنم . والثنت كرييور الى الحائط واطبق جفنيه وقال لها : تسهرين هنا طول الليل ولا تطفئي المصباح بل اتركه موقداً يسطع بنوره . قال هذا وهو ينظر الى السقف ثم ثقل وعند ما رأى مريم قد جاست بالقرب من سريره وانها اضاءت المصباح واوقدت مصباحاً آخر بدا عليه الاطمئنان واستغرق بعد ذلك في النوم فنام حتى الصباح .

ولما استيقظ واجلسته مريم في كرسية حضر الطبيب فسأله عن صحته ثم كلمه في شؤون وشجون الا ان كرييور كان مشغول القلب فلم يجب طبيبه بغير « لا » و « نعم » ثم انقطع الطبيب عن كلامه فانشأ المريض بنظر الى الطبيب وحاول ان يفتحك من شق فمه الذي لم يفتح وقال له : يقال ايها الدكتور انك لا تعتقد بشي . فاجابه الدكتور قائلاً : ما من احد الا وهو يعتقد بشي . يا عزيزي كرييور . فقال هذا : اعني بقولي يا حكيم انك لا تعتقد اي انك لا تعتقد بالشیطان . فاستفتحك وقال وهو يدرك ما يقول في خاطر صاحبه : او تعتقد بان للشیطان وجوداً ؟ فقال كرييور : كلا . وجود للشیطان . قال هذا وحاول ان ينهض من كرسية وامسك بيد الطبيب فقال : كنت اعرف حق المعرفة بان ليس ثمت شیطان ولا جهنم ايضاً . فقال الطبيب : نعم انا على ثقة من ان الشيطان . نعم لا وجود لها . فاجاب الشيخ المريض : انك تعرف ذلك وانت الذي درست العلوم واحكمتها . فقال

الذكركتور : لا يعترف العلم بوجود شيطان ولا جهنم . فقال الشيخ اذا كان العلم لا يعترف بوجودها فذلك لانه صحيح . قال هذا وقد اخذ مقعده من كرسية واطبق جفنيه وسطح في وجهه بريق الفرح ثم همس قليلاً بصوت بكاد لا يفهم قائلاً : نعم ليس في الوجود شيطان ولا جهنم العلم يعرف ذلك ومن اعرف من العلم يمثل هذه الامور . ثم فتح عينيه واخذ يتحدث في الطبيب وامارات الشك لقرأ في وجهه كأنه يريد ان يبحث في ذهنه عن امر لا يعثر عليه . و ينتظر الطبيب ان يعينه عليه .

الا ان الطبيب سكت وهو يتأمل في كريمة وبتلوي في جبهته ما ينم به قلبه الذي لا يكتم السر كالصبي . ثم ظهر كريمة في مظهر من زال عنه همه واخذ يد الطبيب وقال له : وماذا يقول العلم عن الحياة الثانية ؟ فاجابه الطبيب العلم لا يستطيع ان يبين حقيقة العالم الثاني فان هذه المسألة من المسائل الاعتقادية . ثم سأله : وهل انت يادكتور تعتقد بالآخرة ؟ كلا لا اعتقد . فقال المريض الظاهر ان ليس هناك آخرة اذ العلم لا يعترف بها ولا يشتها . ثم ملكت على الشيخ كريمة مشاعره وسكت واخذ بهز رأسه وفتح فاه واغلقه ثم فتحه ثانية واغلقه . وبدأ على منحنه ان في قلبه سرّاً يريد ان يحل مشكلته وحاول الانسجام وان منعه شغله المفلوجة منه وقال : من البلاء بل غاية في البلاء ما بذكروني عن الجزاء بعد الموت وهل للجزاء من حقيقة ؟ فاه بهذا السؤال وهو محتاج لجواب ايجابي فكان جواب الطبيب له : اذا عنت بالجزاء ان على المرء ان يذكر ما قدمت يداه وان هذا هو الجزاء فاني لا ارى فيه شيئاً من البلاء وأظالم اعقدت بان كل امرئ في ذاته بل الانسانية مجموعها يجب عليهما ان يحاسباً عاجلاً او آجلاً عما اتياه من الافعال والافعال في هذه الحياة الدنيا . ولما سمع الشيخ هذه العبارة قال : انني لا افهم . فاجابه الطبيب : ومع هذا فانت مدرك ما اعتقده من انه لا بد من وقت يجيء في هذه الحياة ايضاً يكافأ فيها الخير ويعاقب الشر . فقال الشيخ يجازي بين هذه الحياة بالذات هذا غير ممكن بل متعذر كل التعذر .

ولما فاه الشيخ كريمة بهذه الكلمات فاه بها بالهجة الفزع وقد تمسك بشراعي الكرسي وهو يجحد الطبيب يصهره وقال : كلا انك لا تقول ما تفكر فيه وما انت الا مردد لما كنت سمعته فقل لي ماذا يقول العلم وما اظن العلم يقول بما انت تدعيه فماذا تعلمك العلم ؟ فاجابه الطبيب : ليس للعلم في هذا الموضوع شأن وما انا الا مصرح لك باعتقادي بعد تجاربي الخاصة ومعرفتي في الحياة . فلما سمع المريض ذلك حاول ان يقتل الشدة لانه لاحظ ان ما صرح به من معتقده قد اثر تأثيراً شديداً في المريض فاستلقى على ظهره في

الكرسي من جديد واخذ يطبق عينيه ويفتحها ويطوف الغرفة والفرع الشديد آخذ منه واصفر وجهه اكثر من ذي قبل واصبحت يداه بلا حراك على ذراعي المقعد وقال : تجاربك ايها الطبيب تجاربك تقول بذلك ؟ فقال الطبيب : نعم هذا هو اعتقادي اعتقده واكرره واقول غير هيب ولا وجل ان كل امري في هذه الارض يجازى عما قدمت يداه ان خيراً تخيراً وان شراً فشرّاً وتؤخذ منه الفائدة (الربا) وفائدة الفائدة اضعافاً مضاعفة .

فلما فاه الطبيب بهذه الجملة نظر اليه كريور نظره من يحب الاقتناع بان هذه الافكار هي من الافكار الخاصة للدكتور ليس الا وقال : مع الفائدة وفائدة الفائدة ولكن هذا القول قاطع وهو معتقد غير مقبول .

وهنا ادرك الطبيب ان هذا الحديث لا يزيد المريض الا ضيق صدر فقاطعه وقال : عليك يا صاح ان تطرد من ذهنك الافكار السيئة وان لا تفكر الا في شفاء جسمك وان تساعد على نقاهتك ما امكن وها قد اصحت احسن صحة من ذي قبل فما عليك الا ان تعنى بالشفاء كل العناية . ثم سلم وانصرف .

فنظر اليه كريور حتى اذا غاب عن نظره عاد يجهد في كل مكان محاولاً ان يجلس في كرسيه بحيث كان ينظر الى الغرفة يجموعها وانه لكذلك دخلت عليه الخادمة فقال لها اريني ماركوس فقد نافت نفسي الى رؤيته . فنادت مريم هذا الولد وكان في غرفة في الطابق العالية يستعد للذهاب الى المدرسة وكاد يأتي على صفحة من كتاب النحو اللاتيني وينظرها كلها . تخف الى غرفة جده وكتابه مفتوح في يده واخذ مقعده في زاوية من زوايا الغرفة . ولما سمع كريور بقدوم حفيده سكنت نفسه بعض الشيء وانغمض عينيه ليحاول ان ينام ولكن استيقظ مرتجفاً قائلاً : يا ماركوس هل انت عندي ؟ فاجابه الولد نعم يا جده انا هنا .

ومنذ ذلك اليوم اصبح يجيء الولد الى غرفة جده كل يوم ولم تنعكس صحة هذا ولكنها لم تنقص ايضاً وعلى هذا النحو مضى الاسبوع . والطبيب يعود مريضه كل يوم وقد ظهر له ان كريور يكاد لم يستعد قواه الا ببطء شديد . ولم يعودا يجانبا بينهما عن المعتقدات وقد حاول المريض ان يعود الى الخوض في هذه الموضوعات ولكن الطبيب كان يقاطعه ويدخل في شؤون اخرى .

مضت على ذلك ايام والعبور لا يترك كرسيه الا للثوم في سريره وقد حدث انه جرح نفسه مرة وجده وساقاه ضعيفتان الى الحزن وكان متصاباً بداره ولم يلتفت في الحقيقة الى ما كان يجري فيه امامه وقد هدد بيده المستخدمين الذين كان يعتقد انهم يزنون ويقيسون

على الأصول وعاد فاستشاط غضباً منهم على نحو ما كان يعتاض ايام صحته عند ما دار سيفه خلفه بانهم يحسبون الكيل والوزن والقياس . وانت عليه ساعات وهو يردد ما قاله لبعض مستخدميه عدد ما رآهم يزنون بالميزان وقيسون بالمقياس : لا تزنوا هكذا بل اقل من ذلك والا فانا وبقي يردد هذه النصيحة بدون ان يكلم احداً بعينه ولكن هذا التهديد كان ينبعث من فؤاده كأنه عام لجميع من يخالفون ارادته

ولم يطل مقامه في غرفته وهو يشعر بأنه احسن حالاً فيها من حيث الصحة واخذ يطوف غرفته ويتأكد وكان عليه لما فيه من الضعف ان لا ينهض من سريره ولكنه كثيراً ما يمشي في ألبسته الرثة ويقف امام الشباك ويهز رأسه ويقول وهو صموت بل يحنق ويقول همساً : مع الفائدة وفائدة الفائدة ! يقول هذا ثم يهز رأسه هزة غريبة وينظر الى كرسية الكبير فيقع فيه ويطبق اجفانه وينام ولكن نومه لا يطول فيستيقظ سيفه الحال كأن قلماً عظيماً اخذ من نفسه مأخذاً ويسحب نفسه مشاقلاً نحو الشباك ويطل على ما وراء غرفته ويعاود تلك الكلمات التي طالما ردها وهي : مع الفائدة وفائدة الفائدة .

وكان حفيده ماركوس يتألم من اخلاق جده اكثر من غيره لانها كانت في الغالب سيئة وكان جده اذا استغرق في افكاره يكلم نفسه ثم ينادي : يا ماركوس يا ماركوس اين انت يا مفضحك ؟ فيجيبه هاءنذا يا جده . ويقرب منه وفرائضه ترنم فيسأله الشيخ ألم ماذا تعمل يا كسلان ؟ فيقول أعلم النحو يا جدي . فيجابه : نتعلم النحو ومن قال هذا يا متوان اذهب وزن لي سكرًا ناعماً . يقول هذا وكأنه يمد يده الى الولد ليصفعه ولكن هذا يغطي اذنيه بيديه ليخفي من الصفع . ويذهب الى الخزن كالسهم المرسل فيأتي جده في اسرع من لمح البصر بالسكر الذي طلب منه احضاره ويحجي به حاملاً كيساً منه بكل قوته ومعه اكياس صغيرة يأخذ بملاها بان يزنها في ميزان صغير وضع على منضدة فاهو الان يقول له جده لا تكثر يا بنس واجتهد بان تعطي ابدًا قليلاً فالناس لا يدركون الكمية التي انت تضعها . ثم تكمد جهة الشيخ وبعددهية يعود هذا فيصرخ : انت انت يا ماركوس ياغي ؟ فيخف اليه الولد وهو خائف يتربق وقد وضع يديه على اذنيه وينقلم نحو كرسى جده قائلاً : هاءنذا يا جده . فيسأله ماذا تصنع ؟ فيقول له انني ازن سكرًا . فيعود فيقول ومن قال لك ذلك ؟ واين كتابك في النحو ؟ فانت تزن سكرًا بدل ان تعلم دروسك يا كسلان وتظاھر بانك نتعلم مع انك لا تصلح لشيء .

وعند ذلك يجر الولد الكيس في الخزن ويرجع الى زاويته ولكن كرسى لا يتركه زمناً مستريحاً فتارة يطلب منه وزن السكر واخرى يوعى اليه بدروسه وهكذا بدون تسلسل في افكاره ولا رابطة في اوامره .



ولما نقه كريثور ذات يوم بعض النقااة طرد ماركوس من غرفته وأغلق الباب اغلاقاً محكمًا ثم أخرج من جيبه حزمة من المفاتيح وكانت مفاتيح خزانة الكليبي وما كان يفارقه قط . حتى كان يذكرها في اضيق حالات مرضه ويضعها تحت مخدته . فذهب اذ ذاك نحو الخزانة وفتحها وأخرج منها الجرار واحداً بعد آخر وقد أصبحت معظمها فارغة الا قليلاً وكان بعضها فقط يحتوي على قليل من النقود الذهبية مجردا كلها بيده ثم وضعها وهو يهيس قائلاً : قد ذهبت كلها ولم يبق الا القليل ! ثم عالج قفل صندوق كبير فخرج غطاءه . ولم يكن فيه غير كتاب متوسط الحجم فلما رآه وقف قليلاً وهو يتحدث فيه ثم أخرج القفاز من يديه ولتقدم من الشباك ورفع طاقيته فوضعها على المنضدة وفتح الكتاب ولم يفتح ليقرأ فيه بل انه لم ير صفحة اسمه وهذا الكتاب هو تفسير الكتاب المقدس باللاتيني كان لابنه الصغير عند ما كان في المدرسة . ولم يقرأ ما فيه ولكن نظره وقع على الصفحة التي كتب عليها يد طفل مبتدي « هاتان السكتتان » يوحنا كريثور « وبني ينظر في الكتاب ملياً وهو يمسكه بيده وعيناه ناظرتان لهذا الاسم وهما لا تريان غيره وعندها فاضت بالعبرات فنسأفت على الاسم وعلى الصفحة وحاول ان يكفكفها بكم قيصه امزق . وعند ذلك اطبق الكتاب ووضع في الصندوق وادخله في الخزانة واغلقها ووضع « طاقيته » على رأسه وقفازه بيده وراح يخطر في الغرفة ومزموجه (شبشب او صرماية) في رجليه ليمسح صوته . ووقف جاعلاً رجليه على الاخرى بالقرب من النافذة ونظر الى خارج وتنهى وهو يكلم نفسه قائلاً : مع الفائدة وفائدة الفائدة ولعل هذا صحيح ؟ ثم علت وجهه الكآبة والحزن



وفي بعض الايام دخل ماركوس الصغير وهو يبكي الى المطبخ حيث كانت مريم قائلاً : ان جدي مات في كرسيه . فقالت له وكيف ذلك ولم تكن حالته في خطرانه لم يكن وجوده حملاً ثقيلاً علينا ثم قصدت الغرفة فوجدته مائتاً على الدف وقد ظهر لها انه جاءته نوبة وهو في كرسيه وادركت في الحال انه لم يمت فحملته الى سريره واستدعت الطبيب فحضر ورأى كريثور غائبا عن رشده وعيناه مغمضتان وقد فلتحت جميع اعضائه . فوقع الطبيب في حيرة ولما سأله مريم فيما اذا كان تمت امل في الشفاء لم يجيبها بكلمة فامر بان يوضع على رأسه خرق تجعل في ماء فاتر وان يفصد الا ان كريثور قضى الليل كله وجميع نهار الغد بدون حركة . وعند المساء فتح عينيه قليلاً ورجفت يدها وكان ماركوس جالسا على

صندوق بالقرب من سرير كريثور وعيناه مفيضان بالدمع وهو ينظر الى جده ومريم واقفة بالقرب من الشباك ترتب الكرسي ففتح كريثور شفتيه قليلاً كأنه يريد ان يتكلم ونفس الصعداء فلم يبت منه الا مقطع واحد من مقاطع الحروف وهو الفا الفا اي الفائدة وهي الكلمة التي طالما ردها بقوله الفائدة وفائدة الفائدة ثم اغمض عينيه وعاد الفالج فاستولى عليه فجأة وارتمت اعصابه واخذت عينه نتيجة صوب حفيدته قائلاً له : مار . . مار . . مار كوس ! فاجابه الطفل : ها ! نذا يا جدي فقال وما تصنع ؟ فاجابه : لا شيء يا جدي

ثم ظهر كأن عيناً كريثور خرجتا من محجرهما واكد وجهه وقال بصوت لا يفهم : الفا . . حنا ! ثم عانى كثيراً وحشرجت روحه ونقلت شفتاه وحدق بعينيه في السقف وراح لاهو لا حراك به . فنقدم كل من مريم وماركوس نحو سريره . فقالت المرأة : لقد مات ! فوقع الولد من الصندوق الذي كان جالساً عليه ووضع يديه على وجهه وشق بالبكاء كأن صدره اوشك ان يتصدع . اما مريم فكانت تنظر الى تلك الجثة الهامدة ولا تفكر لما الا ان تعظمين وتؤكد انه مات حقيقة . ولما ثبت لديها موته الفت بيدها الى تحت مخدته ولتناولت 'حزينة المفاتيح' . ثم اغلقت باب المسكن ودخلت على حين غرة الى الغرفة التي كانت فيها الخزانة وفتحتها . وصرفت وقتاً في معرفة كل مفتاح وجزاره الا انها تمكنت من ذلك بعد العناء ولما فتحتها قالت والغضب آخذ منها : فارغة كلها فارغة لعنة الله عليها كلها فارغة . ورأت في اسفل احدى الجرار بضعة نفوذ ذهبية وفضية فاخذتها ووضعتها في جيبها وهي تنظر الى خلفها مخافة ان يباغتها احد . ثم نظرت ذات الييمين فبهضت به صندوق فبرقت لرؤيتها - اربير جيبها وقالت كنت على ان انتاه ولعل فيه الخير الكثير وبعد ان عاجلته طويلاً فتح لها ولكنها لم تجد فيه غير كتاب التفسير . فقالت وقد استشاطت غضباً وما هذا الكتاب العتيق وما السر يا نزي في اخفاء هذا الكتاب سيف الصندوق الكبير فما عثمت ان اخذته والقنه طعاماً للنار وانغلت الخزانة وعادت الى غرفة الميت فرائت ماركوس يتجسس ويكي فوضعت 'حزينة المفاتيح' تحت مخدة كريثور وخرجت نازكة الباب وراءها مفتوحاً قليلاً وذهبت الى المخزن لتأدي المستخدمين قائلة ان معكم قضي نحبه فتعالوا اعينوني حتى نقوم بما يجب اكراماً له فهو الى غرفة الميت اما هي فاقتربت من ماركوس وانحنى عليه بمحمان واخذته الى ناحية وقالت له : « لا تبك يا بني » ثم انشأت تمر يدها على خديه وجعل الولد يتمسك بعنقه فقالت له بصوت كئيب : مات المحسن الينا فياله من خطب جسيم يا ماركوس عزاً وانا في انا سنراه في السماء فانه رحيم وهو سيففضل علينا ذات يوم ان نشاهد من اسدى الينا اباديه . وما جحك يا ولدي الا ان الامع الارار في السموات العلى !